نتاجُ المثقف قولُه .

لا يملك المثقف سوى القول و لكل ميدان ثقافي قوله الخاص القائم على مفاهيم إي أدوات بها ينهض و بها ينوجد متميزاً متمايزاً . من هذه المقدمة السريعة أدخل إلى القول الروائي وأبدأ بطرح سؤال أولي لا بد منه : هل القول الروائي هو قول ثقافي ؟ أطرح هذا السؤال لأن متابعتي للرواية عامة واللبنانية منها خاصة دفعني إلى ذلك ؛ فما وجدته من استهتار بهذا البعد الفكري والثقافي عند العديد من روائيّينا دفعني إلى تساؤلات ربما خطرت على بال الكثير من القراء : هل يا ترى كانت جدتي ، رحمها الله ، أهم روائية من دون أن تدري ؟ وهل إنْ دوّن أحدهم القصصَ التي سمعها من جدته وهو طفل أو إن لملم ، من هنا أو هناك ، قصصاً مبعثرة وحبكها بلعبة فنية مصطنعة يصبح قوله قولاً روائياً ؟

على هذه التساؤلات أجيب بأن الرواية قول ثقافي بامتياز لأنها المجال الأرحب الحاضن لكل الميادين الثقافية والفكرية والتي يتم إخراجها بقول خاص هو النص الروائي ؛ فالرواية التي لا تقوم على هم ثقافي فكري هي حكاية ، حتى وإن أتقن صاحبها بناءها وأكثرَ من أصواتها وأخرجها وفقاً لقواعد النقد الأدبي السائد. الرواية /الحكاية هي التي تُقرأ وتُروى بينما الرواية/ الرواية هي التي تُقرأ ولا تُروى لأن البعد الفكري الثقافي الذي تحمله أو يحملها هو خارج النص ، خارج السرد، خارج الأحداث المروية التي لا يستقيم دورها إلا حين تأتي تمثيلاً على البعد الثقافي الفكري . ربما انبرى ، هنا ،بعض النقّاد لرفض هذا الكلام ، وأقول لهم : إنكم برفضكم هذا تدافعون عن دوركم وليس عن الرواية لأن الرواية تأتي قبل النقد لا بعه ، هو تابع لها ، بينما الرواية/الحكاية تتبع النقد ومقولاته لاسترضائكم واستدرار كتاباتكم المدّاحة لها . الرواية التي يكون انهامها هو الثقافي الفكري لا تأبه بما سيكتبه عنها النقاد لا بل هي التي ترسي قواعد النقد الذي سيأتي بعد تراكمها .

أما عن فنية الرواية التي يركز عليها النقد إجمالاً فهي "اللعبة" التي يلجأ إليها الروائي كي يُخرج ما يريد قوله . فكاتب الرواية/الحكاية يدرس أولاً قواعد النقد ويحاول إلباسها أحداث حكايته فيكون بذلك كالمثقف "عارض الأزياء" الذي تكلمنا عنه في مقالة سابقة ، أما كاتب الرواية /الرواية لا يكترث بقواعد النقد لأن همه الفكري الثقافي هو الذي يبدع فنّية نصه ؛ ولهذا السبب نراه في كل رواية يبدع لعبة فنية خاصة بها فتأتي فنيته من داخل النص إذ لا يعود هناك من تمييز بين القول وفنيته ؛ وهنا يقف النقاد أمام جديد لا يعرفونه ، أمام نص لا يجدون له مرجعية يرتكزون عليها لنقده فيصابون بالدوار وتكون ردة فعلهم إما الشتيمة وإما الصمت وكلاهما واحد بالنسبة لصاحب القول الروائي لأنه دليل على العجز مع فارق بسيط بينهما وهو أن الصمت أدهى وأخبث من الشتيمة .

لكن القول الروائي هو ، كما كل قول ثقافي آخر ، مرسلٌ إلى متلقٍ يقرأ النص ، مرتكزاً على خلفيته الثقافية ؛ وهنا يتبدّى الاختلاف بين قارئ وآخر أي بين القارئ الأمّي والقارئ المثقف ؛ الأول يلهث وراء الحكاية والثاني يبحث عن المعرفة والمعنى . وإن عدنا إلى غالبية القرّاء العرب نعرف أنهم يتميزون بأميتهم التي يعكسونها على النص وهنا يظهر رواج الرواية/الحكاية بينما تبقى الرواية/الرواية محدودة الانتشار، قراؤها النخبة المثقفة فقط، وهي بذلك لم تكن قد أخطأت الطريق لأنها بالأساس كانت موجهة إلى هذه النخبة ، والتي ، على عكس المافيات الترويجية لا تحوّل الإنتاج الفكري إلى سلعة تجارية ، وعندنا في لبنان غالباً ما تكون هذه المافيات هي إما طائفية إما سياسية أو هما معاً.

أما الانتشار اليوم فإنه يعني تخطي البعد اللغوي وصولاً إلى" العالمية" وهنا نلاحظ الهرولة وراء الترجمة وهنا بالتحديد يدخل السياسيّ على الثقافي فيُترجم إلى اللغات الغربية إما "الرواية" التي تكون قد روّج لها في العالم العربي وهي الرواية/الحكاية التي تعطي دليلاً للغرب على تخلفنا ودونيتنا والتي بدوره يتلقفها ويترجمها للبرهنة على ما يحاول تأكيده وبالتالي على ضرورة تحكمه بنا . هذا من جهة ، أما من جهة ثانية فإن الغرب يبحث عند العرب والعالم الثالث إجمالاً عن الرواية التي قولها هو قول سياسي يصبّ في مصلحته أو يروّج لرؤيته حول المقولات المطروحة اليوم في التداول مثل الديموقراطية والسيادة

والاستقلال وغيرها . أما اللرواية/الرواية التي قولها يضاهي أو يتفوق على قول الرواية الغربية أو التي قولها يعارض أو يتصدى للمفاهيم السياسية الغربية السائدة ، فإنه يتجاهلها ويبعدها عن مؤسساته المنشغلة بالترجمة.

يبقى أخيراً أن نشير إلى جنس القول الروائي حيث كثيراً ما نقرأ ونسمع عن الأدب النسائي ، فما هو المقصود بهذا التعريف؟ هل هو النصوص التي تكتبها النساء فقط أم أنه يحمل بعداً اختلافياً آخر يميزه عن الكتابة الذكورية ؟ إن متابعتي لما يسمونه أدباً نسائياً جعلني لا أميز بين غالبية الكتابات التي تحمل عنوان الأدب النسائي والكتابات الذكورية إذ أن القول هو واحد في الاثنتين . أما الكاتبة التي لا يختلف قولها عن القول الذكوري والتي تقبل بأن تصنّف نصوصها بالأدب النسائي فهي تماماً كالمثقف " عارض الأزياء " تستعمل قلمها لتحيّك لنفسها زياً ذكورياً يخفي جسداً إنسوياً مهمشاً أو ملغياً . إن قلم الكاتبة هذه هو قناعها الذي تخفي وراءه ذاتها مستكينة إلى كونها موضوع القول لا قائله .

د. إلهام منصور .